أبو النّــو

فراس محمد الحركة ـ سوريا

المكان

غرفة صغيرة ـ وربما تكون هذه الغرفة تحت الأرض ـ طاولة مكتب عليها عدد لا بأس به من الأوراق والمصنفات، علاقة أقلام، كرسي، مقعد خشبي عريض نسبياً عليه حرام من الصوف، صندوق غريب الشكل قرب الطاولة، طاولة صغيرة، عليها طبق كبير يحمل أفضل أصناف الطعام والفواكه، زجاجة خمر، باب الغرفة ظاهر على الجمهور.. تستمد الغرفة ضوءها من زواياها.

يرافق العمل المسرحي، حتى الختام، صوت البحر الهادئ الجميل.

الزمان: عِنْد أَرْذَله..

الســــــتارة

يدخل رجل في الأربعين من العمر، شعره ولحيته أبيضان تقريباً، لباسه ممزق ومتسخ، وكأن شخصاً دفعه بقوة إلى داخلها، يصرخ.. يقع أرضاً، يلتفت حوله، تصدح موسيقى صاخبة عشوائية متداخلة وقوية، ينهض مذعوراً، يركض.. يقع.. يزحف.. يحبو.. ينهض، يقفز

في مكانه كالمجنون، يقع أرضاً، تسقط نظارته، تطفأ الأضواء مع انتهاء الموسيقى العشوائية الصاخبة القوية.. يئن الرجل في مكانه، يلهث بصوت قوي مسموع، يدلف ضوء خافت من إحدى زوايا الغرفة.. يلتفت حوله بحذر، يرفع يده مظللاً عينيه ببطء، ويقول بسخرية:

ـ شكراً..

يهز رأسه غير راض.. يقرب يده من عينيه، يفقد نظارته:

ـ أين نظارتي؟

يحبو باتجاه ما باحثاً عن نظارته، يرتطم رأسه بالطاولة.. يعلو الطاولة، وهو يلتفت حوله بحذر..

ـ ما هذا المكان العجيب؟ كل يوم في مكان جديد، وحال جديدة، وطعام جديد..

و «*أنا وحدي أتصدى للريح الغربية*

وأنا.. بيديّ الشاحبتين أقاوم أخطائي الغيبية!

.... أسير على كفيْ.

أبكي وحدي في الظلمة أحباباً غابوا (فوق) الماْء

أتلكأ عند حدود الشوق وأرثي تاريخ الأسماء!» *

تسقط بعض الأوراق والأقلام، بعد أن استقر الرجل على الطاولة

* علي الجندي.

تماماً.. ينبطح عليها، تسقط المصنفات وباقي الأغراض، وتتدلى يده، يتوسد الأخرى، ويئن بصوت مسموع.. تزداد إنارة الغرفة بعد برهة تدريجياً، وببطء ملحوظ.. تبدأ الموسيقى العشوائية الصاخبة، ويتزايدان معاً.. يرفع رأسه، يرتجف، يحاول أن يتكور، يقع أرضاً، يتكور قرب الكرسي.. تتوقف الموسيقى فجأة، ويبقى الضوء على حاله، يلتفت حوله، ينهض، يراقب..

ـ **صوت من خارج المسرح:** يا أبو النّو..

يصعق للصوت المفاجئ، يرتجف، يصغي بحذر..

ـ **يردد الصوت ثانية:** يا أبو النو..

ـ **وهو يحاول الاحتماء بالكرسي:** نعم..

ـ **الصوت:** يا أبو النو.. هذا المكان الذي أنت فيه الآن هو مكتبي الخاص، وهو آخر مكان تزوره عندنا قبل مثولك للمحاكمة، لديك كل شيء لتكون مرفهاً، معك الليل كله، وما عليك سوى أن ترفه نفسك، وتدون ما هو مطلوب منك، وإلا بشرفي ستعدم. مفهوم؟

ـ **أبو النو مقلداً:** مفهوم؟ اي تفو.. لن يكون لكم ذلك.

تطفأ الأنوار فجأة، وتعود إلى ما كانت عليه.. يرتبك قليلاً، يعود لهدوئه، يسير ببطء شديد باسطاً يديه، يصل إحدى جنبات الغرفة.

ـ الباب؟!

يحاول فتحه.. يفشل.. يحاول شده بقوة أكبر، فيقع أرضاً..

-

«كنت أحياناً الغوّاص الذي لم يعد يقدر

على تجنّب الماء الهائج!

وكثيراً ما كنت شعباً لا يقدر

على الفرار من المدينة!» **

هيه.. لقد أ نهكوا جسدي من شدة الضرب، المشكلة أنهم لم يوجهوا إليّ إلا سؤالاً واحداً، وباقي الأسئلة تصدر صوتاً من جسدي(**يكشر عن أسنانه**) ذلك الأصلع اللعين..(**مقلداً**) يا أبو النو.. سنجعلك تنونو.. (**بصوته**) وينهال عليّ ضرباً.. يا أخي إن كانت المشكلة كذلك سانوْي حتى الصباح، أي.. نياووو.. آخ.. نياوو..

صمت قليل.. برهة شرود..

ـ لو كان كل واحد منا يتنبأ بدخول مثل هذا المكان لكان تابع تمارينا للتقوية الجسدية..

يضحك بشكل هستيري.. ثم يقول مقهقهاً:

ـ يا أخي تعودنا.. والله تعودنا، اعتقالات.. سجون..

** موريس ميترلنك.

منافي.. تعذيب.. قهر.. فقر.. نضال.. آه.. لقد اعتقلت مرتين، مرة في الأرض المحتلة عند العدو الإسرائيلي، والثانية الآن هنا في هذه العاصمة، الأولى: لأني أرفض السلام، والثانية: لأني أجيّش أفكاري وأشعاري للمقاومة، وأزرع الثورة في نفوس الشعب المغلوب على أمره..

يجثو.. يشرد.. صوت عزف منفرد حزين على الكمان..

ـ ما هذه الوحدة والغربة التي أشعر بها، أشعر.. أشعر أني غريب في وطني، في أسرتي، ولا أعلم كيف يجدون وجودي هنا بينهم مألوفاً.. ياه.. آخر شيء أذكره قبل دخولي هذا المكان هو البحر، البحر **(يعتدل في جلسته)** ودعت أخي الذي هرب مع بعض الرفقاء إلى المنفى، وركبتُ سيارة أجرة عائداً إلى المدينة الساحلية الجميلة، وهناك تماماً، وعلى مشارف المدينة تلك، داهمتني دورية مسلحة، قبضوا عليّ، واقتادوني إلى هنا..

يرفع يديه مناجياً..

ـ يا رب السماوات.. احفظ أخي والرفقاء سالمين لمنفاهم الإرادي..

يجثو.. يحبو مفتشاً عن نظارته.. يتوقف..

ـ كيف يحصل هذا؟ ولماذا أنا؟ كيف يبيحون لأنفسهم أن يحرموني من حريتي؟ الوطن مُلكٌ عام، فكيف يحرقون إرادتنا؟ كيف يخلطون وحدة مصالحنا، ويبعثرونها من جديد؟ كيف؟ الوطن مُلكٌ عام، فكيف نكون أمة واحدة، وكل واحد منا يقضم أظافر قدميه خوفاً وجوعاً؟ الوطن مُلكٌ عام..

يهز رأسه، كمن ينفض عنه أكوام أفكار يابسة:

ـ نحن أمة لو بعثرها النّو، لكنا للنّو خالقين.. إي روح يا عمي، لا مكان في بلدي إلا...

تصدح الموسيقى العشوائية الصاخبة من جديد، قاطعة حديثة، يبقى جاثياً، شامخاً، ينهض ببطء.. يصم أذنيه، يتلوى، يتأرجح.. يصرخ بصوت قوي وعميق.. يجثو.. يستلقي.. يتلوى.. تتوقف الموسيقى فجأة.. أبو النّو ما يزال على حاله مستلقياً.. يحرك أطرافه بطرافة.. ينهض.. بتابع البحث منحنياً عن نظارته، يجدها، يبتسم، يمسحها بطرف قميصه الممزق.. يضعها على عينيه، يراقب المكان..

ـ الحمد لله.. هكذا أفضل.. نعم.. الآن أستطيع حضور مسرحية الحياة، تلك المليئة بالألوان والظواهر والقوى والفرضيات..

يفتح عينيه ويغمضهما أكثر من مرة، يقدم رأسه للأمام، يضع يده على

نظارته مكان العدسات المكسورة ـ أو المفقودة ـ ينـزعها، يضربها بالأرض، ويدوس عليها..

ـ العمى يضربهم، حتى نظارتي لم تسلم منهم، والله لم تبق غيرها (**مشيراً إلى مؤخرته**) وأخشى أن يستثمروها، أو يؤمموها، وتصبح أملاكاً عامة. هي.. مهما كنتم أقوياء، فمطلق الحقيقة في ذاتي تطحن كل شيء لأجل الخلاص الأبدي**!!**

يطرق في الأرض.. يلملم بعض الأوراق التي وقعت عن الطاولة، ويضعها على طاولة المكتب، وكلما أمسك شيئاً قربه من وجهه متأكداً.. يدور حول طاولة المكتب، يرى الصندوق، يتلمسه، يفتحه، يتناول بعض الصحف والمجلات، ويعود إلى الطاولة، يجلس على الكرسي خلف طاولة المكتب مقابلاً الجمهور، وهو منكب عليها ومقرباً وجهه منها ليحسن القراءة، يقلبها، يرميها، يتناول غيرها، يقّلبها، يقرب وجهه أكثر، يقرأ:

ـ إن ملحمة (جلجامش) ذروة الأعمال الأدبية الخالدة، بما تحتويه من قصٍّ ممتعٍ، وأسئلة فلسفية، تتعلق بالكينونة وبالوجود..

يرميها وهو يقول:

ـ صحيح.. ما يحزُّ في نفسي أنه تم ترجمة الملحمة عن

اللغات الأوربية، أيعقل أننا لا نستطيع، نحن أصحابها، ترجمتها؟!!

(يتناول واحدة أخرى.. يقلبها.. يقرب وجهه أكثر، يقرأ:)

ـ تم اعتقال الكاتب والشاعر الكبير أبو النّو..

يترك الجريدة.. يشرد.. يقول:

ـ هل كان على الرفقاء الهروب؟ لا.. لا.. لقد رأيت الكثير من الشباب يعذبون هنا، وقد خسروا بعض حواسهم أثناء التعذيب. كان يجب أن يبقوا هنا، فنحن لا نعير اهتماماً للاعتقال أو التعذيب، نحن أفراد هذا الشعب العظيم، يجب أن نتكلم، يجب أن نصرخ بأعلى صوتنا، نحن للوطن والوطن لنا، نحن أقوياء، خلقنا أقوياء، وسنسود العالم بأسره بالحضارة والفن والفلسفة..

يشرد قليلاً.. ثم محادثاً نفسه:

ـ إي شو هالفلسفة، نموت من الجوع من أجل حضرتك؟ ومن قال تموت من الجوع؟ يا أخي أن تكون مع الدولة شيء، وأن تعمل ضدها شيء آخر، يعني بلا مؤاخذه، اخرج من هذه الأبواب، وادخل عالم الصدق والنبوءة. أغرك المال والجاه؟ يا أخي المال مثل اللغة

تماماً، كلاهما وجدا كأسلوب للتعايش والبقاء..

يرمي الجريدة أمام المكتب.. يلتقط مجلة أخرى، يقّلبها.. يقربها من وجهه، يقّلبها.. يقربها.. يحدق بها جيداً.. تبدو عليه ملامح الجد، يقف، يقربها من وجهه، ومن الضوء أكثر، يقول:

ـ هذه صورتي.. قصيدة للشاعر أبو النّو قدمها يوم التمرد العظيم؟!

يحدق بها بشغف كبير، يصعـد الكرسي.. يهم بإلقاء الشعـر، تسمع أصوات مشجعة متداخلة تحثه على القراءة، تتداخل مع أصوات أخرى تصرخ معذبَة، يرتجف في مكانه قليلاً، ينـزل.. يجلس.. تغيب الأصوات بجلوسه:

ـ كنت سأقيم أمسية شعرية في مدينة صغيرة، ولم أبدأ قصيدتي هذه حتى أُطفأت الإضاءة بحجة أن شبكة الكهرباء في المجمع الثقافي تعطلت، وعمت الفوضى، وأرجأت الأمسية، وعلمت بعد يومين من أصدقائي المفكرين والمثقفين في المدينة أن أحد (المتواطنين) قام بنسف غرفة القواطع الكهربائية التابعة للمجمع الثقافي، بالتعاون طبعاً مع بعض السَلطات والفتوش المختصة، وقرر المثقفون وأهالي المدينة التمرد، فأمسكوني كالمخلّص، وتجمهروا حولي، وجمعوا الطاولات والكراسي والبراميل، وحتى حاويات القمامة، ليصنعوا

منبراً عالياً أقف عليه، ويرونني منه. أعجبت بهذا التمرد العظيم، وحمسني وقوفهم كالبنيان المرصوص والحمد لله.. لكنهم عيّشوا، وسقّطوا، وسقّطوا، وعيّشوا.. كان يوماً عظيماً، غير أني لم أقرأ قصيدتي، ولم أعتل المنبر المصنوع، لقد حوصر المكان، وأطلقتْ العبوات المسيلة للدموع، وبقيت مكاني أتفرج على الشتات الفظيع. اعتقلت يومها لساعات وأطلق سراحي. هيه.. لو كنت أعرف أن قصائدي ستنشر هكذا بعد اعتقالي لأمضيت عمري في المعتقلات، المهم أن يصل صوتي لكل الشعب. العمى.. عمر القصيدة أكثر من عشر سنوات، ونشرت الآن.. والله ممتاز، هذا يعني أنهم يريدون أن يوصلوا رسالة للجيل الجديد على أنهم متعاونون مع الشعراء والأدباء والمفكرين، ومن خلال نشر قصيدتي هذه يظهرون منفتحين، ومتحررين، ومتعاونين..

يعتلي الكرسي.. يرفع يده.. تصدح الموسيقى العشوائية الصاخبة المتداخلة القوية، مع تخبط الإنارة.. ينـزل عن الكرسي، يصم أذنيه، يحاول الصمود، يبعثر كل الجرائد والمجلات التي أمامه على الأرض، يتوسط الغرفة، يركع.. يحبو على ركبتيه.. يتكور في مكانه، وتتوقف الموسيقى العشوائية الصاخبة، وتثبت الإنارة.. يحبو بتكاسل نحو الطاولة، يلتقط المجلة التي وقعت منه أثناء صراعه مع الموسيقى،

يضمها إلى صدره، يتكور معها، يعتدل، ينهض، يرفع المجلة بإحدى يديه.. يحدق فيها، ويغني بصوت طفولي مقطعاً من قصيدته:

أنا شهيد شاهد على موتي

ومكتوب على جبيني

أمتي..

يتوسط الغرفة.. يلهث.. يجثو.. يضع المـجلة أمامه، مقابلاً للجمهور، ينحني عليها، يمسدها.. يقذف رجليه إلى الوراء ببطء.. يصبح منبطحاً..

ـ أتذكرين كيف كتبتك؟ **(يمسد المجلة)** أعدك بأن نسكن إحدى مدن البحر الجميلة.. ونبتعد عن هذا الهم.. أشهد برب السماوات أن طيفك المجنون لم يفارقني لحظة واحدة.. كفتاة طرية شهية كنتِ، وكنتُ عربيداً..

يضم المجلة، يستلقي، يغفو، تُسمع أصوات متداخلة، بين الموسيقى والشعر، أصوات نسائية، ضحكات الأطفال، موج البحر، ضربات.. صرخات.. لعنات.. هتافات.. عتابات.. نايات.. يصحو من غفلته، تغيب الأصوات كلها، يضرب الأرض بقدميه، يبعثره سعال حاد، يقوِّم ظهره، يحبو باتجاه الطعام، يسعل، يرتطم رأسه بطاولة المكتب، يغير اتجاهه، ونحو الطعام مباشرة.. يسعل، يصلْ، يتناول زجاجة

الخمر، ينـزع غطاءها بأسنانه، يجرع منها قليلاً، يتنحنح، يجرع مرة أخرى، ثم يغب متلذذاً.. يرتعش.. يتثاءب..

ـ كدت أموت لولا هذا الخمر.. الحمد لله..

يهز رأسه.. يقرب الزجاجة من وجهه، ومن الضوء..

ـ أجنبي!! جيد.. مع أننا أمهر من في العالم في صناعة الخمور (**يجرع**) عندما كنت صغيراً كان أبي يُجلسني على الطاولة أمامه، بين الأطباق والكؤوس، يسكب لي كأساً صغيراً. هيه.. قال لي سوف تكبر، وسوف ترى وتسمع ما لم أعلمك إياه، لذا سأحاول أن أعلمك كل شيء حسب استطاعتي، وتقرر أنت بعدئذ بنفسك أي مركب تحب الإبحار به.. رحمة الله عليك يا أبي.. أيه..

كان طويل القامة، قوي البنية، وكان يملك بندقية من الطراز القديم، ويشارك الثوار بأعمالهم الفدائية، وقبل استشهاده بساعات قال لي: توجد بيننا خيانات عظمى، ولكن الأهم دحر العدو، واستشهد كما تمنى. كان الثوار يغنون أغنية قومية حزينة عند دخول الضيعة، وهو محمول على أكتافهم، ومضرج بالدماء، استقبلتهم نساء الضيعة بالزغاريد والرز والياسمين والبكاء، واختلطت الزغاريد بالأغنية القومية، بأصوات إطلاق النار، بالبكاء.. كان طقساً مهيباً، طقساً للدم والدمار، طقساً

للدفن والدفلى. لم يكن أبي الوحيد، كل يوم عزيز شهيد، كل يوم صديق شهيد، وكل يوم رضيع يبقى وحيداً.

يحدق في زجاجة الخمر.. يرفعها للجمهور، ويقول:

ـ بالنصر..

يشرب النخب، يبكي، يشرب من جديد.. يهدأ.. يقع بصره على جريدة قريبة منه، يجرها نحوه، يقربها من وجهه:

ـ هذا المقال لي؟!! يا إلهي، هذه الجرائد والمجلات هي أرشيفي الشخصي! يا أوغاد، يا سفلة..

يقرب الجريدة من وجهه، يقرأ:

خالجتني نسمات باردة خلسة، وارتعشتُ، كأني وقعتُ في بركة ماء مثلج، ولا أملك من الدفء سوى أغطيتي، وراقت لي فكرة استراحة المحارب على مبدأ طاب النوم يا عرب! وما أصعب النوم في قمة لحظات التفكير واجترار الذاكرة.

ثم يُنـزل الجريدة ببطء، ويسرد:

ـ ياه.. تذكرتها، هيه.. يومها، نِمْتُ على بطني، منبطحاً، فشعرت بأشياء كثيرة مفعمة بالخذلان وخيبة الأمل، واستمرت.. لتتخمر عفونة الكشف، وتسفر عن أمرين: الأول: أشاع فيّ نوعاً من الإثارة والفحولة، كأني على

جسد امرأة تعصرني لتطبق على صدري.. والآخر: خازوق يثبتني على سريري، ويخرق صدري.

فغيرت، ونِمْتُ على جنبي الأيسر، لففت جسدي جيداً، وربّما حسناً فعلت، لقد ارتاح صدري، وجلت عني خواطر الدقائق الماضية، وصرت أسمع دقات قلبي تزداد تارة، وتغيب تارة أخرى، آلمني قلبي، وراح يكبر، ويتضخم، ويغفو.. مالي ومال قلبي، أين إرادتي؟

وبدأ يستولي عليّ خدر النوم، ويبلع السكون قلبي، فخفت عليه وعلى نفسي، فلحظات التشاؤم الممزوجة بشعور الموت مرهقة، فهربت!

نِمْتُ على جنبي الأيمن، يا أخي ينصح الأطباء، دائماً، بالنوم على الجنب الأيمن، وإن كنت أخشى من تخدر يدي اليمنى التي أستعملها للكتابة، ولأشياء أخرى، لكني واظبت على النصيحة.. تراءى لي قلمي مذعوراً، ومنشغلاً باندفاع أهوج نحو الغموض، وأصابعي مخدرة بلا جدوى، وسطوري تهرب من خطي العليل، شكوت لكلماتي همّي، بيد أن صوتها كان أشبه بالأنين، فخفت على كلماتي من تشوه أحرفي، لتنحو بغير قصد لغير معنى.

نِمْتُ على ظهري مستلقياً، لملمت نفسي داخل حرامي،

أحكمته جيداً حولي، ثم خرقت سقف غرفتي بأفكاري لأرى النجوم، تلك النجوم الجميلة التي أشبهها بنمش على صدر فتاة جميلة، تتغزَّل فيما بينها لتملك، حين الواقعة، الشامة الأخرى..

فتعب ظهري، واستمر ليطال رقبتي، تلك التي تسايرني عندما يكون وجهي مائلاً لليسار، وتريحني عندما يكون مائلاً لليمين، وعدا هذا وذاك، لحق بي شخير ناعم، يشبه صوت محرك الماء من بعيد ـ الذي يعمل على المازوت ـ وشعرت أني أتضاءل، وربّما سأختفي.

تخيلوا.. **(للجمهور)** لو نستطيع النوم في قمرة تدريب رواد الفضاء على انعدام الوزن، هكذا لا نحتاج لأي شيء، يا أخي، نم بطريقتك.. لا يهم، على مبدأ المثل الشعبي (نم على الجنب اللي يريحك) إي وبدون استقرار؟! ولكن.. إن كنتم تتوهمون بحالات أخرى تذهب بكل شيء، لإعادة صياغة كل شيء من جديد، فأنبئكم: اسألوا أولادكم إن كانوا راغبين بإعادة بناء خرابكم؟!

ويضحك.. يحبو لجمع الجرائد والمجلات الملقاة على الأرض، يسعل.. يشرب، يحدق في الزجاجة:

ـ يا أخي خمرنا أفضل من هذا بكثير..

يلتفت حوله.. ينهض.. يضع بعض الجرائد والمجلات التي التقطها على طاولة المكتب، يصغي، ثم يصرخ:

ـ هيّ.. يا.. ما هذا الترفيه العظيم، ألا تسمعونني؟ أنا أبو النّو.. أبو النّو.. يا أخي مللت، أين موسيقاكم أيها الأوغاد؟ لقد أعجبتني، هيّ.. هوّ.. يا..

يجلس.. يحدق في زجاجة الخمر.. يشرب.. يحبو باتجاه المجلة، يتناولها، يقلبها، ويعود بها إلى مكانه قرب زجاجة الخمر، يشرب..

ـ كم شربت خمراً لأدفئ نفسي، وأنا أروح وأجيىء من أمام بيتك المميز بالشرفة التي يعربش عليها الياسمين.. ياه.. أين أنت الآن يا حبيبتي؟!!

يشرب بنهم..

ـ كنا في الاحتفال الأخير لرأس السنة نرقص كالمجانين..

يعاوده السعال، يجرع كثيراً، يأخذ المجلة، ينهض، يقوم بالرقص مع المجلة، يترنح دون هدى، يترنم بلحن راقص مغموم.. يتوقف عن الرقص.. يعود ببطء وحزن إلى زجاجة الخمر، يجلس قربها، يرفع زجاجة الخمر..

ـ أشعر أني بحاجة لعشرين أو ثلاثين منها. هق.. يا أخي لم أذق مثل هذا الخمر في حياتي، يعني لذيذ ومشؤوم، أو على الأقل هكذا أشعر.. شيء أفضل من لا شيء.

ياه.. ما هذا الشتات العظيم الذي نعيش فيه؟! أيُّ قدر ساقنا كالكبش لمذبح المهزلة؟! أذكر.. أذكر أول لفافة تبغ دخنتها، يومها أشعلت لفافتي التي سرقتها من أبي من جمر احتراق منـزلنا إثر القصف المركز الذي كان على ضيعتنا الصغيرة، وهكذا نحن، مسروقون، ومحروقون. هق.. يا إلهي.. كيف يختلط دخان القذائف والصواريخ بدخان سجائرنا؟! ونحن متلذذون.

يصيح:

ـ(احرق بيتك، أنا آتٍ.. دع كل شيء، واتبعني، أنا المتشرد العظيم..)

يهدأ، ثم يقول بصوته المحزون:

ـ ماذا فعلنا بأنفسنا؟ هق.. تركنا بيوتنا، مزارعنا، أراضينا، ونزحنا دون الدفاع عن أرضنا، والجيش العظيم الذي يتصدى للعدو فيه رجال جاؤوا من أقصى البلاد للدفاع عنا. هق.. وعن أرضنا وبيوتنا وأعراضنا التي تركناها. يا إلهي.. يا ربي.. يا بطني.. آه.. آه.. آه آه.. بطني.. معدتي..

يتلوى.. يعتصر.. يمد يده على الطعام، يعلّقها قليلاً في الهواء، يضرب الطبق، يبعثر الطعام والفواكه أرضاً.

ـ لن آكل طعامكم يا أوغاد. هق.. أوغاد.. أوغاد.. لقد رهنت حياتي كلها للشعر، لن أدعكم تمرغون حروفي في الليل..

يتلوى.. يعتصر.. يجرع قليلاً من الخمر، ينهض، يحمل المجلة بيد، والزجاجة بيد أخرى.. يردد لحن الأغنية القومية الحزينة، التي تصدح بتصاعد جميل، يتراقص معها، يتلوى، متأرجحاً من الخمر والألم، تندمج مع الموسيقى العشوائية الصاخبة. تتخبط الإنارة، وهو يرقص، ويرقص، ويرقص. يجثو.. يستكين، يجرع من زجاجته، يتلذذ الموسيقى بحركات مجنونة، يعتدل في جلسته.. يتمتم بصوت مسموع متقطع:

ـ الناس.. لا.. عود الثقاب. لا.. الجوع.. نعم.. رغيف الخبز.. أقداح مثقوبة **(تهدأ حركته)** خبر وفاة العمود الحجري الذي خرج للشارع مبللاً **(يبتسم)** لم يجد مكاناً ليتبول..

يثبت نظرة كمن تذكر شيئاً، ثم نسمعه يرتل الشعر بهدوء:

«لا أريد نواحاً.
لا حداداً، ولا دمعاً..

....

فقط.. شلالُ نبيذٍ أحمر يدورُ من فم إلى فمْ
فقط.. الموسيقى: تهبُّ على السماواتِ

كنسمة مبللة بعطر أزرق» ***

يكرر كلمة (أزرق) عدة مرات، ثم يضحك بشكل هستيري.. يسعل.. يرتعش.. يرتجف.. يحبو باتجاه المقعد الخشبي، يسحب غطاءً له، يرميه على كتفيه، ويعود زاحفاً إلى مكانه، يسعل، يأخذ زجاجته، يشرب ببطء.. تصدح الموسيقى العشوائية الصاخبة.. ينهض، يقع غطاؤه، يترنح، يضرب صدره.. يجوب الغرفة مع اللحن الهمجي.. يحوم حول نفسه.. كطقس للعبادة.. يجثو.. يتكور.. يحاول النهوض.. يفشل.. يشرب.. يرتجف.. يتناول غطاءه.. يدثر نفسه.. تنتهي الموسيقى العشوائية الصاخبة، يظهر صوته متقطعاً مرتعشاً:

ـ دثريني واردمي.. هق.. تراب العالمين على جسدي..

يلتفت حوله، يشعر بوحدته:

ـ ألا تريدون إعدامي ياجنرالات. ها أنا ماثل أمامكم. هق.. أعدموني، اقتلوني، أنا أكره وجودي عندكم، أرجوكم أعدموني.

يبكي، يتلوى، يسعل، يأخذ جرعة من زجاجة الخمر، يتململ في غطائه..يردد لحن الأغنية القومية الحزينة، بصوت مغموم غير مفهوم، ينفض غطاءه، ينهض مرتجفاً من البرد، والخمر، والألم، ودون هدى يقلب طاولة المكتب، تتخبط الإنارة، وتصدح الموسيقى العشوائية

*** نزيه أبو عفش.

الصاخبة، مرافقة الضوء في القوة والانخفاض، ومازال يظهر صوت أبو النّو في الأغنية القومية الحزينة، ويكاد يغيب. يقْلب أثاث الغرفة، المقعد الخشبي، الصندوق، يمسك بعض الجرائد والمجلات ويقذفها فوق رأسه عالياً، تتطاير هنا وهناك، يصعد الكرسي، ينـزل، يعلو الطاولة المقلوبة، يقع.. الموسيقى العشوائية الصاخبة تعود مع الإنارة كما كانت عليه، وهو يحبو على الأرض مردداً ببطء:

ـ دثريني واردمي تراب العالمين على جسدي (**ثم يصرخ**) حبيبتي.. (**بصوته**) ربما أنا هنا، وغداً بين يديك، صدقيني.. هق.. لسنا وحدنا، هناك الكثيرون ممن رحلوا، أو ماتوا فداءً للوطن. لا تحزني، هذه الأرض تتلذذ قرابين دم الشهداء، نحن خلقنا لنحيا. هق.. وهذا يعني أن الرفقاء سيكملون الدرب، وسيحصدون نصراً عظيماً.

يبكي بصوت مرتفع قليلاً.. يتمتم شعراً بصوت مسموع:

«لا تقدر الشمس نفسها
أن تضيء هذا الجسد
الذي ينـزف ظلاماً

...

أين الحفرة التي تتسع للدمع؟
أين الثقب الذي يقدر
أن يؤاوي الروح؟» ****

يتكور.. يحاول النهوض.. يفشل.. يحبو نحو كل الجهات في الغرفة، متمايلاً، متكوراً، متألماً.. يعلو صوته ممطوطاً حزيناً في لحن الأغنية القومية الحزينة، يزداد صوت البحر قوة، وصوت النايات الحزينة.

يضرب صدره، يمزق كامل قميصه، يصبح عاري الصدر تماماً، ينهض يتكاسل.. يرتعش.. يرتجف.. يدور حول نفسه ضائعاً في كل شيء.. يقع أرضاً.. يعض يديه، ثم يتحول ليعض قدميه. يصرخ.. يزحف باتجاه الجمهور بشكل جانبي، تتعالى الموسيقى العشوائية غير الصاخبة، متداخلة مع صوت البحر، وصوت النايات، وضحكات الأطفال، وزمجرة الجماهير. يتابع تقدمه.. يظهر نصف جسده العاري خارج الغرفة ـ أي المسرحـ يرفع يده عالياً ببطء شديد.. يعلقها حرة قليلاً.. تهوي يده ببطء نحو الأسفل، فالأسفل، ويتبعها نصف جسده العاري، ورجلاه على المسرح، وتتسابق الموسيقى والأصوات والإنارة في الانخفاض حتى الصمت العام، ومنشور ضوئي صغير يغمـــــره كئيباً.

النهـــــــــاية

**** أدونيس.